الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد
برنـامج هـل تعرفـني؟

السيد الحميــري

مؤثرات موسيقية.....

إن تسأليني بقومي تسألي رجلاً في ذروة العزّ من أحياءِ ذي يمن
حولي بها ذو كلاعٍ في منازلها وذو رعين وهمدان وذو يـزن
والأزد أزد عمان الأكرمون إذا عُدّت مآثرهم في سالف الزمـن

- نعم أنا من أزد اليمن، لي نسب في عمان وأحساب تشدّني إلى رهط ذي يزن وهمدان وذي رعين. وإذا سألتم عنّي فإنما تسألون عن رجل في ذروة العزّ والأمجاد والكرم. وإذا شئتم معرفة نسبي على التحديد فأنا أنتسب إلى محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفزع الحميري. وأمّا من جهة أمّي فإنّ نسبي يرتفع إلى حدان بن شمس بن عمر الأزدي. وقبيلة حدان تشترك مع قبيلة حمير في عروبتها ويمانيتها ومجدها وسؤددها، وتكاد لا تقلّ عنها شرفاً ومكانة. فأنا إذن حسيبٌ نسيبٌ ذو شرف كبير في سلسلة أجدادي من أمّي ومن أبي.

ضربة موسيقيـــة.....

- كان مولدي في عمان، وقد استقبلني أبواي بما يستقبل به كرام الآباء مواليدهم من الذكور. لقد احتفلا بمجيئي احتفالاً خاصاً وتأنّقاً في اختيار اسمي وكنيتي ولقبي. أما اسمي فهو إسماعيل، وأما كنيتي فهي أبو عامر، ويصرّ بعض المؤرّخين على أنّها أبو هاشم. لكنّ أحداً لا يعرفني باسمي ولا بكنيتي. الجميع يعرفونني بلقبي وانتسابي إلى قبيلتي. ولذلك فإنّني لن أكشف عن هويّتي لكم حتى يتمّ تعريفكم بشخصي وبأدبي أيضاً.

ضربة موسيقية.....

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضـان عبدالرحمن لاوند (سـيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

- يروي المؤرخون أنّ ابنتي العباسة قد حدّدت عام 105 هـ تاريخاً لولادتي.. وهناك من يزعم غير ذلك فيردّ ولادتي إلى تاريخ أقدم من هذا التاريخ بستين عاماً. وما يهمّكم أنتم أن تعرفوا التاريخ الحقيقي لمولدي؟. ولكنّني مع ذلك أرفض القول بأنّني ولدت في الزمن المتقدّم الذي أشار إليه البعض. كما أنّ ابنتي قد أخّرت يوم مولدي لسببٍ لا أدريه. المهم أنّني ولدت في بداية العهد الأموي من أبوين خارجيين وهذا هو أصحّ الآراء. لا تنسوا أبداً أنّ اكثر أهل عمان كانوا على مذهب الخوارج في تلك الأيام الخوالي.
- ومهما يكن الأمر فأنا غير مسؤول عن مذهب أبويّ. لقد اخترت أن أكون من شيعة الإمام، وقد فعلت وقضيت حياتي كلّها كفاحاً من أجل قضيته، وكتبت شعري كلّه تنويهاً بحقّه في الخلافة.

ضربة موسيقية....

- كانت نشأتي الأولى في البصرة. المدينة التي تقف فوق كتف الجانب الشرقي من الصحراء. جاء بي أبواي إليها من عمان. ومن الطبيعي أن أبدأ حياتي الفكرية بتقليد أبويّ، ولكنّني لم ألبث حتى خرجت إلى أسواق المدينة الكبيرة ومجالسها العلمية والدينية في المساجد أو في منازل الأشراف والأمراء. ولا أنسى المربد التي كانت تلتقي فيها أنواع من الناس، فيهم الخارجيّ والأمويّ والسنّي والشيعيّ والمؤمن والملحد. وقد استمعتُ إلى كلّ هؤلاء الناس، وأدرتُ في ذهني كلّ ما كانوا يتبادلونه من الرأي وفنون التأييد والشجب والولاء والتمرّد. لقد كنت أعيش في البصرة مع عالم أشبه ما يكون بالبحر الذي تصبّ فيه كلّ الأنهار فتتجاور مياهها فيه تارة ويمتزج بعضها بالبعض الآخر تارة أخرى، كما يكون فيه الصدف واللؤلؤ وتتلاقى فيه الحياة والموت. لقد كان عالم البصرة عالماً مشبعاً بالأفكار والمذاهب مزحوماً بالاتجاهات المتعدّدة المتناقضة.

ضربة موسيقية...

- ولا أخفي عليكم أنّ أبويّ الخارجيين قد بدآ يقلقان عليّ ويشعران أنّ المدينة بما فيها من التيارات الفكرية المتضاربة قد أبعدتني عنهما. فحاولا جهدهما أن يحمياني من تلك التيارات، ولكنّني مع احترامي لهما وحرصي على ألّا أردّ لهما طلباً اخترتُ أن أسير مع الأحداث والأفكار التي كانت تحرّك مدينة البصرة. كنت لا آوي إلى البيت إلا عند الحاجة الملحّة الى النوم. فالمساجد تتلقّفني وتستهويني بما كان يدور فيها من المناقشات العامة. والمجالس الخاصة كانت تسحرني بما كان يجري فيها من المناقشات الحرّة تنطلق فيها العقول على سجيّتها وتتحرّك الأفكار غير مستأنية ولا متباطئة. فهي لا تعتمد غير

المنطق ولا تؤمن إلا بفتح الأبواب حرّة أمام العقول. هذا بالإضافة إلى ما كنتُ أستسيغه من بليغ القول وجميل البيان مما كنت أسمعه من خطباء المربد وشعرائها..

ضربة موسيقية.....

- وجاء يومٌ بدأت فيه أشعر بالغربة عن أبويّ، وأستبين الفارق الكبير بين مذهبهما ومذهبي. وكان ربما ضايقني المبيتُ عندهما فأقضي ليلي في مسجد من المساجد تجنّباً لصِدام يُحتَملُ وقوعه بيني وبينهما.. ثمّ تتابعت الأيام فإذا سمعتُ أبواي يثلبان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أخرج عنهما دون أن أنبس ببنت شفة وأبقى جائعاً، فإذا أجهدني الجوع ولم أعد قادراً على الصبر رجعتُ إلى البيت فأكلتُ ثمّ خرجت..

ضربة موسيقية.....

- ثمّ جاء يوم اكتشفت فيه قدرتي على نظم الشعر، وخيّل فيه إليّ أنّ في وسعي فعل ما لم يفعله غيري من الشعراء. لقد رأيت فيما يرى النائم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكأنّه في حديقة سبخة فيها نخل طوال وإلى جانبها أرض كأنّها الكافور ليس فيها شيء.. فقال: أتدري لمن هذا النخل؟ قلت: لا يا رسول الله، قال: لامرىء القيس، فاقلعها واغرسها في هذه الأرض ففعلت.
- وتسرّبني الرؤيا فأستيقظ من النوم نشيطا وأتوجّه إلى أبويّ ألتمس عندهما تأويل ما رأيتُ في منامي. فلا يجدان ما يقولانه لي، ويذهبان بي إلى محمد بن سيرين مفسّر الأحلام المعروف في عصرنا، وأقصّ القصة عليه والشيخ يصغي باهتمام بالغ، وأتمّها فيسألني الشيخ قائلاً: أتقول الشعر؟ فأجيبه بالنفي. فيقول الشيخ: أما إنّك ستقول شعراً مثل امرىء القيس إلّا أنّك تقوله في قومٍ بررة أطهار. فما انصرفت إلّا وقد عزمتُ على قول الشعر وقد فعلت.

ضربة موسيقية.....

- قد يجدُ البعض في قصة الرؤيا ما يرتبط بالأسطورة. وأنا لا أخفي عليكم بأنّ بعض المؤرّخين قد أصرّ علي صحّة القصة. ولكلّ من هؤلاء المؤرّخين الرواة دوافعه العميقة أو مبرّراته التي تبدو له منطقية معقولة. ويبدو لي أنّ ما حدث لم يكن غير النتيجة الطبيعية لنموّ ميلي نحو آل البيت، وقد تأثّرت بالمعارضة الشديدة التي كان أصحابها يحمِلون على الحكم الأموي في تلك الأزمنة البعيدة. ولما كنتُ أملكُ حساسية خاصة، ولما كانت قد اجتمعت لي جملة من المحفوظات الشعرية، فإنّ من الطبيعي أن

يتفجّر الشعر في نفسي عند أول مناسبة تعرض لي، فتكون بمثابة الدفعة الأخيرة التي تحرّك كوامن الشعر في نفسي. ومهما تكن حقيقة هذه القصة فإنّ الواقع أنّ الشعر لا يأتي مرة واحدة، وإنّ إتقانه يحتاج إلى الدربة الطويلة بالإضافة إلى الموهبة الفنية. وقد تحقّقت لي الدربة الطويلة بفضل المجالس العلمية والأدبية التي كنت أغشاها في مدينة البصرة.

ضربة موسيقية.....

- لعلّكم لم تعرفوني بعد. فلنمضِ في عرض جوانب أخرى من أفكاري وشعري وأنا واثق بأنّكم ستعرفونني من بعد..
- اختلف الرواة في عقيدتي. هناك من يقول بأنّني منتسب إلى الكيسانية من أنصار آل البيت. وآخرون يزعمون أنّني من الزيدية، وهم من آل البيت أيضاً. وفريق ثالث يؤكّد أنّني من الإمامية الإثنى عشرية.. والواقع أنّني كنت أقربُ إلى الكيسانية الذين كانوا يقولون بإمامة محمد بن الحنفية وباختفائه في جبل رضوى بانتظار أن يأتيه أمر الله ليعيد الأمور إلى نصابها، كما ينصّون على إمامة الإمام علي رضي الله عنه. وإذن فإنّني لم أكن من أنصار الإمامية الإثنى عشرية ولا من أنصار الزيدية. يضاف إلى ذلك أنّ الذين نسبوني إلى المذهب الكيساني قد تفرّقوا في تعيين المذهب الذي اخترته من بين مذاهبها. بعضهم كان ينسبني نسبة غامضة كما هو شأن الشهرستاني في كتابه "الملل والنحل". والبعض الآخر كالرازي في كتابه "اعتقادات المسلمين" ينسبني إلى الكربية أتباع أبي كرب الضرير، وهي القائلة بإمامة محمد بن أبيه الإمام علي مباشرة.. والبعض الثالث وهو ابن حزم يردّني إلى المذهب الكيساني الذي ينادي بالتناسخ والحلول، ورد ذلك في كتابه "الفصل في الملل والنحل"، يشاركه في هذا الرأي الدكتور طه حسين في كتابه "ذكرى أبي العلاء"..

هذا كلّه لا يهم. فإذا أردتم أن تعرفوا الحقيقة فابحثوا عنها فيما نظمتُ من الشعر. فإذا وجدتم فيها ما يؤيّد أحد هذه المذاهب فلا عليكم أن تنسبوني إليه. يبقى أن أقول لكم إنّ فريقاً آخر من المؤرّخين ينكر كلّ هذه الأنساب ويؤكّد أنّني من القائلين بإمامة الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية مستشهداً بالأبيات التالية:

ألا إنّ الأئمّة من قريش ولاة الحق أربعة سواء

عليّ والثلاثة من بنيه هم أسباطه والأوصياء

فأنّى في وصيته إليهم يكون الشكّ منّا والمراء

بهم أوصاهم ودعا إليهم جميع الخلق لو سمع الدعاء

فسبط سبط إيمان وحلم وسبط غيّبته كربـــلاء

وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللــواء

ضربة موسيقية.....

ويمضي الرواة بعد ذلك في تأريخ مرحلة ثالثة أصبحتُ فيها من أنصار الإمامية الإثنى عشرية بعد اجتماعي بالإمام جعفر الصادق في مكة. وقد درجت في كلّ مراحل حياتي الشعرية على اتخاذ الأمويين هدفاً لي أصوّب سهامي إليهم وأحرّض الناس عليهم. فنظمتُ القصائد التي تؤيّد مذهبي أرثي بها ضحايا العهد الأموي ولا سيما زيد بن علي الذي ثار في الكوفة فقاتله الأمويون وقتلوه. فإذا أتى العهد العباسي واستخلف أبو العباس السفاح وتمّ القضاء على العهد البائد القديم توجّهت إلى الخليفة العباسي الأوّل ومدحته في قصيدة مرفوعة إلى بني هاشم جاء فيها:

دونكموها يا بني هـاشـم فجدّدوا من عهدها الدارسا

دونكموها لا علا كعب من كان عليكم ملكها نافســا

دونكموها فالبسوا تاجهـا لا تعدموا منكم لها لابسا

لو خيّر المنبر فرسانـه ما اختار إلا منكم فارسا

قد ساسها قبلكم ساسـة لم يتركوا رطبا ولا يابساً

ولست من أن تملكوها إلى مهبط عيسى فيكم آيســا

ويهتزّ قلبُ الخليفة طرباً وتأخذه النشوة فيقول لي: يا إسماعيل، سلْني حاجتك، فأقول له: ترضى عن سليمان بن حبيب بن المهلّب وتولّيه الأهواز، فيسرع إلى تلبية الطلب ويكتب العهد بذلك ويدفعه إليّ.

ضربة موسيقية.....

- وتمضي الأيام فيتوفّى أبو العباس السفاح ليأتي بعده أبو جعفر المنصور الذي صفَت أيامي في عهده. ثمّ يكون بعده محمد المهدي الخليفة العباسي الثالث فتقع بيني وبينه جفوة ثم لا ألبث أن أسترضيه، ثمّ يخلفه الخليفة العباسي الخامس هارون الرشيد. وتكون أيامي معهم جميعاً على الجملة أياماً راضية هانئة،

أمدحهم جميعاً ويرسلون عليّ أكثر من مرة لإلقاء القصائد التي نظمتها في مدحهم بين أيديهم. ولعلّ من الضروري أن أنقل إليكم مقطعاً من قصيدة نظمت عشرات مثلها في مدحهم. وهو المقطع الذي أعلن فيه ولائي لبني هاشم عامة ولموسى وهرون ابني المهدي خاصة. جاء فيه:

ضربة موسيقية.....

آليت لا أمدح ذا نائل من معشر غير بني هـاشم

أولتهم عندي يد المصطفى ذي الفضل والمن أبي القاسم

فإنها بيضاء محمودة جزاؤها الشكر على العـالـم

جزاؤها حفظ أبي جعفر خليفة الرحمن والقـائـــم

وطاعة المهدي ثمّ ابنه موسى على ذي الأربة الحازم

وللرشيد الرابع المرتضى مفترض من حقه الـــلازم

ضربة موسيقية.....

- هكذا أنهيتُ حياتي. وهكذا ترون أنّها مضت في أكثرها هنيّة ليّنة وجاءني الموت بعد ذلك في عام 179 هـ أي في خلافة هارون الرشيد. وأشهد أنّني قد وفيتُ آل البيت حقهم من المديح والرعاية. فقد وقفتُ شعري كلّه عليهم. أدافع عنهم باليدين وبالفم. وأخطبُ ودّهم وودّ من يودّهم. وإذا كنت قد وقفت شطراً كبيراً من شعري على الخلفاء العباسيين فلأنّهم من بني هاشم. وبنو هاشم عندي هم الذين أوصاني النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم بتأييدهم ومحالفتهم. وقد فعلت ذلك حتى لفظت أنفاسي الأخيرة.

هل عرفتموني بعد كلّ الذي قدّمته من الأخبار والأشعار تعريفاً بنفسي؟ إذا كان بعضكم لم يتعرّف عليّ بعد فأنا إسماعيل ابن محمد ،كنيتي أبو عامر، ولقبي الذي عُرِفتُ به هو السيّد الحميري..

موسيقى النهاية.....